Abhat Journal, Volume. 17, Issue. 1, March 2025

Abhat Journal, Faculty of Arts, Sirte University مجلة أبحاث بكلية الآداب جامعة سرت
Source Homepage: http://journal.su.edu.ly/index.php/ABHAT/index
DOI: https://doi.org/ 10.37375/aj.v17i1.3220

أثر البيئة في الشعر الجاهلي معلقة امرئ القيس أنموذجاً

أ. إبراهيم الصديق أحرير
ihryr@su.edu.ly
قسم اللغة العربية/ كلية الآداب
جامعة سرت/ ليبيا

د. محمد أبوشعالة صالح
Dr.mhmed@su.edu.ly
قسم اللغة العربية/ كلية الآداب
جامعة سرت/ ليبيا

الملخّص

تتناول هذه الورقة البحثية تأثير البيئة الجغرافية، والاجتماعية في معلقة امرئ القيس من حيث الموضوعات، والصور الشعرية، والأساليب المستخدمة، وتسلط الورقة البحثية الضوء على العناصر البيئية التي أحاطت بالشاعر مثل الصحراء، والمناخ، والحياة البدوية، ودورها في تشكيل تجربته الشعرية، حيث تعكس المعلقة طبيعة الصحراء القاسية التي عاش فيها امرؤ القيس، حيث تتكرر صور الجفاف، والسراب، والرياح، والمطر، وحضور الأماكن الجغرافية مثل "دارة جلجل" و"تثليث" وغيرها، التي توضح تأثر الشاعر بالمكان. كذلك تصوير الحيوانات الصحراوية مما يعكس علاقته الوثيقة بالطبيعة، والمجتمع الجاهلي القائم على القبلية والصيد والغزو. وهو ما يظهر في افتخار الشاعر بنفسه وبفرسه. والعادات والتقاليد الاجتماعية التي انعكست في وصف المرأة، والمغامرات العاطفية، والحنين إلى الماضي.

الكلمات المفتاحية:

امرؤ القيس، الشعر الجاهلي، أثر البيئة، معلقات.

The Effect of the Environment on Pre-Islamic Poetry: the Hanging of Imru' al-Qais as an Example

Ibrahim Ihryr
ihryr@su.edu.ly
Department of Arabic Language
Faculty of Arts/Sirte University/ Libya

Muhammad Saleh
Dr.mhmed@su.edu.ly
Department of Arabic Language
Faculty of Arts/Sirte University/ Libya

Abstract:

This research paper deals with the influence of the geographical and social environment in Imru' al-Qais's commentary, in terms of themes, poetic images, and methods used. The research paper sheds light on the environmental elements that surrounded the poet, such as the desert, climate, and Bedouin life, and their role in shaping his poetic experience, as The commentary reflects the harsh nature of the desert in which Imru' al-Qais lived, where images of drought, mirages, winds, rain, and the presence of geographical places are repeated.

Such as "Dara Jaljal", "Triangle" and others, which show the poet's influence on the place. He also depicted desert animals such as antelope and horses, which reflects his close relationship with nature. The pre-Islamic society was based on tribalism, hunting, and conquest, which appears in the poet's pride in himself and his horse. And social customs and traditions that were reflected in the description of women, emotional adventures, and nostalgia for the past

Keywords:

influence of social environment, Imru' al-Qais, pre-Islamic poetry.

المقدمة:

البيئة لها دور كبير ومؤثر في حياة الأديب، فهي ليست مجرد المكان الذي يعيش فيه وإنّما هي عامل أساس في تشكيل فكره وإبداعه؛ إذ تؤثر البيئة على نظرة الأديب للعالم من حوله وعلى كيفية تناوله للمواضيع المختلفة في أعماله.

والبيئة سواء أكانت طبيعية أو اجتماعية تشكّل مصدرًا دائمًا للإلهام والتفكير، فكل أديب يتأثر بما يحيط به من مظاهر طبيعية كالبحار، والجبال، والصحاري، والغابات بالإضافة إلى تأثير البيئة الاجتماعية التي تشمل أفراد المجتمع بأكمله بما فيه من عادات وتقاليد وقيم اجتماعية. والأديب ابن بيئته إذ ينظر إلى ما حوله ويتأمل في مجريات الحياة التي تجري من حوله ثم يعكسها على أوراقه وأعماله الأدبية، فالبيئة تزرع فيه الانطباعات الأولى عن الكون، والبشر، والطبيعة وهذه الانطباعات تتراكم لتشكّل في النهاية رؤية شاملة للعالم. وهو بمختلف تخصصاته سواء أكان شاعرًا، أو روائيًا، أو كاتبًا لا يستطيع أنْ يفصل نفسه عن بيئته، بل يجد نفسه متأثرًا بالمناظر الطبيعية، الألوان والأصوات، والروائح، والأحاسيس التي تولدها فيه هذه العناصر الطبيعية.

فمنذ العصور القديمة وحتى الآن نجد الأدباء يستلهمون أعمالهم من واقع بيئتهم، سواء كانوا يعيشون في بيئة ريفية، أو حضرية، أو ساحلية، أو جبلية، فكل نوع من هذه البيئات يترك بصمته الواضحة على أدبهم.

ولا يقتصر الأمر على الطبيعة فحسب، بل أنّ البيئة الاجتماعية للأديب لها تأثير عميق كذلك، فتفاعل الأديب مع الآخرين ومع المجتمع ككل يولد في داخله مجموعة من الأفكار والمشاعر التي تصقل شخصيته وتظهر في أعماله الأدبية.

ويعيش الأديب في تفاعل مستمر مع أفراد بيئته، ويتأثر بما يجري من حوله من أحداث سياسية، واقتصادية، وثقافية، تنعكس في مواضيعه، ورؤيته للأمور. والبيئة تمنحه أيضًا مفردات لغته، فالذي يعيش في بيئة بدوية مثلًا يستخدم مفردات مختلفة عن الأديب الذي يعيش في مدينة، فالبدوي يتغنى بالصحراء والرمال والجِمال؛ بينما نجد الأديب الذي نشأ في بيئة بحرية يتحدث عن الأمواج والسفن، والبحارة وهكذا نجد أنّ الأديب يعبر عن بيئته بصدق وإخلاص.

فالبيئة تسيطر على أسلوب الأديب وموضوعاته، كما أنّ الظروف الاقتصادية في بيئة الأديب تؤثر عليه، فالعيش في بيئة فقيرة، أو غنية ينعكس على طريقة تفكيره ونظرته إلى الحياة.

والبيئة الفقيرة تجعل الأديب أكثر تأملًا في المعاناة والفقر، وتظهر في كتاباته حساسية عالية، تجاه قضايا الظلم والحرمان. بينما يركّز الأديب في بيئة أكثر رفاهية على قضايا ذات طابع إنساني، أو فلسفي بعيدًا عن الحاجة اليومية للعيش.

وتؤثر البيئة على خيال الأديب كذلك، فالبيئة الهادئة تجعل خياله أكثر استرخاءً، وتدفعه للغوص في عوالمه الداخلية، بينما البيئة المليئة بالضجيج، والصخب تجعل خيال الأديب أكثر توترًا وتوجهه نحو موضوعات أكثر حدة، فالبيئة بسماتها المميزة مناخيًا، واجتماعيًا، وثقافيًا، واقتصاديًا تُعدّ نهرًا متدفقًا يغذي الأديب، بما يحتاجه من مشاعر، وأفكار، وتجارب تساعده في إثراء أعماله الأدبية.

ويتناول هذا البحث أثر البيئة في شعر أحد أبرز شعراء العصر الجاهلي، وصاحب أول مطولة عربية في تاريخ الأدب العربي، ألا وهو الشاعر امرؤ القيس بن حجر الملقب بالملك الضلّيل، فقد كانت أشعاره انعكاسًا لنبض البيئة التي كان يحيا فيها، والشعراء هم دائما أقدر الناس في ترجمة الأحاسيس ونقل صورة المحيط من غيرهم من الناس العاديين الذين لا يملكون ذلك الحس المرهف الذي يلتقط أبسط الصور والمشاعر النابعة من داخل الشاعر من وجدانه، وخياله، وفكره، وخارجه في النقل والامتزاج مع الطبيعة التي تمثّل في حقيقة الأمر البيئة التي يعيش فيها الأديب المبدع.

إشكالية الموضوع:

يُعَدُّ امرؤ القيس من أبرز شعراء الجاهلية، تأثر شعره ببيئته الجغرافية والاجتماعية بشكل كبير، إذ انعكست طبيعة الصحراء والمناخ القاسي وظروف الترحال على صوره الشعرية وأسلوبه الفني. كما أثرت الحياة القبلية والتقاليد العربية على مضامين شعره، خاصة في موضوعي الغزل والصيد. ومن هنا تبرز الإشكالية التالية: إلى أي مدى أسهمت البيئة الجغرافية والاجتماعية في تشكيل البناء الفني والمضموني لشعر امرئ القيس؟

أهمية الموضوع:

تنبع أهمية دراسة أثر البيئة في شعر امرئ القيس من كونها تسلط الضوء على العلاقة الوثيقة بين الأدب والواقع الذي نشأ فيه. فشعر امرئ القيس ليس مجرد تعبير عن المشاعر، بل هو انعكاس للظروف

الجغرافية والاجتماعية التي أحاطت به. كما أنّ تحليل هذه العلاقة يساعد في فهم الأساليب الفنية والصور الشعرية التي استخدمها الشاعر، مما يُثري الدراسات النقدية حول الأدب الجاهلي. إضافةً إلى ذلك فإنّ دراسة هذا الموضوع تسهم في إبراز الدور الذي لعبته البيئة في تشكيل الهوية الشعرية لامرئ القيس.

أهداف البحث:

- تحليل أثر البيئة الجغرافية (الصحراء، المناخ، الترحال) في تشكيل الصور الشعرية والمضامين الأدبية في شعر امرئ القيس.
- استكشاف التأثيرات الاجتماعية (الحياة القبلية، العادات، القيم) على موضوعات الشعر، خاصة الغزل والصيد والمغامرة.
- تحديد العلاقة بين تجربة امرئ القيس الشخصية وبيئته، وكيف انعكس ذلك في مواقفه الشعرية.
- تسليط الضوء على البنية الفنية لقصائد امرئ القيس من حيث اللغة والأسلوب والصور الشعرية المتأثرة بالبيئة.
- المساهمة في الدراسات النقدية حول الشعر الجاهلي بتقديم رؤية تحليلية جديدة لدور البيئة في تشكيل الإبداع الأدبي.

منهجية البحث:

استعان البحث بالمنهج الوصفي التحليلي وذلك لقدرته على تحليل المشكلة أو ظاهرة البحث العلمي بشكل دقيق، والتعرّف على أسباب حدوثها، مما يساعد على الوصول إلى استنتاجات وحلول دقيقة لها، كما أنّه يتسم بشموليته الواسعة ومرونته الكبيرة في التحليل والمقارنة للوصول إلى نتائج علمية رصينة. وجاء البحث في مقدمة، ومبحثين، وخاتمة حيث تناول المبحث الأول جملة من المطالب وعلى النحو الآتي:

- مفهوم البيئة لغة واصطلاحًا.
- أثر البيئة على الإنسان وحياته.
- أثر البيئة الطبيعية على ثقافة الإنسان.
- البيئة الاجتماعية وأثرها على الإنسان.
- بيئة شبه الجزيرة العربية زمن امرئ القيس.
- البيئة العقلية في العصر الجاهلي وأثرها في أشعار الجاهليين.

المبحث الثاني وتناول أثر البيئة في معلقة امرئ القيس بدراسة مجموعة من أبيات المعلقة التي وردت في ديوان امرئ القيس بن حجر، وخاتمة، وقائمة المراجع.

المبحث الأول:

البيئة لُغة: يرجع أصل كلمة "بيئة" في اللغة العربية إلى الفعل "بوأ" والاسم منها "البيئة"، وورد الفعل بوأ في اللغة العربية بمعانٍ كثيرة مختلفة، ووردت هذه المعاني في المعاجم العربية لكن أشهرها كان بمعنى النزول.

جاء في لسان العرب "تبوّأ فلان منزلاً، أي اتخذه، وبوّأتهُ مَنْزِلاً، وأبات القومُ منزلاً. وقال الفرّاء في قوله عزّ وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ يقال بوّأته منزلاً، وأثويته منزلاً. وفي الحديث: "من كذب عليّ متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار". والبيئة والباءة والمباءة: المنزل، وقيل منزل القوم حيث يتبوّأون من قِبَلِ وادٍ، أو سند جَبَلٍ. وفي الصحاح: المباءة منزل القوم في كل موضع، ويقال: كلُّ منزل ينزله القوم. وتبوّأت منزلاً أي نزلته. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ جعل الإيمان محلاً لهم على المثل، ويكون أراد: وتبوأوا مكان الإيمان وبلد الإيمان. وتبوّأ المكان: حَلَّه. وأنّه لحسن البيئة أي هيئة التَّبوُّء." (ابن منظور، 1994، ص44) والملاحظ أنّ المعنى الرئيس للكلمة يتجه نحو المكان والمنزل الذي يسكنه الإنسان ويستوطنه ومن هنا كان ارتباط مفهوم البيئة مرتبطا بالمكان الذي يستعمره الإنسان ويحيا به ويعيش.

البيئة في الاصطلاح: "هي كل ما يحيط بالإنسان من ظواهر حية وغير حيّة، وليس للإنسان دخل في وجودها، وتتمثّل هذه الظواهر أو المعطيات البيئية في بنية التضاريس، والمناخ، والنبات الطبعي، والحيوانات وبهذا فهي تمثّل العناصر المادية التي يستمد منها الإنسان متطلبات معيشته وتختلف من منطقة إلى أخرى تبعاً لتباين العناصر المكونة لها، فالسهول لها مكوناتها التي تجعلها بيئة طبيعية متميزة عن الصحراء." (زهري، 2020، ص22) وكذلك تُعدّ البيئة الاجتماعية جزءًا لا يتجزأ من البيئة الطبيعية التي تؤثر في الإنسان الذي لا يحيا إلّا داخل مجتمع بشري بحكم الفطرة والطبيعة الإنسانية.

"فالبيئة الاجتماعية مصطلح يشير إلى ما بناه الإنسان وشيده داخل البيئة الطبيعية أثناء بناء حضارته سواء أكان ذلك الثقافة التي صنعها وخلقها الإنسان أو العلاقات الاجتماعية التي كونها" (زهري، 2020، ص24).

أثر البيئة على الإنسان وحياته: البيئة هي كل ما يحيط بالإنسان في عالمه المعيش سواء أكان ذلك المحيط مادي أو معنوي، فالمادي يمثّل كل الظواهر الطبيعية، من سماء، وأرض، ومظاهر التضاريس المختلفة،

وعوامل المناخ والطقس، أو تلك التي أنشأها الإنسان من مظاهر الحضارة المادية المتمثّل في الحضارات المختلفة، أو المعنوية المتمثلة في الفكر والثقافة والعادات والتقاليد التي اكتسبها الإنسان وتوارثتها الأجيال عبر تعاقب الأزمان. فالبيئة هي النظام المتكامل الذي يحيط بالكائنات الحية ويؤثر في تفاعلها ونموها، وتشمل العناصر الطبيعية مثل الهواء، والماء، والتربة، إضافة إلى العوامل البشرية التي تسهم في تشكيلها وتغييرها، فالبيئة ليست مجرد مكان للعيش فقط، بل هي منظومة ديناميكية تتأثر بالأنشطة البشرية والطبيعية، مما يجعل الحفاظ على توازنها ضرورة لاستمرار الحياة الإنسانية.

وتحدث ابن خلدون في مقدمته عن أثر البيئة على الإنسان، وذكر أنّ الهواء (البيئة) المحيط به في إشارة للمناخ تجعل من الإنسان مختلفًا في طبائعه، وذلك باختلاف الأقاليم الجغرافية "ولما كان السودان في الإقليم الحار، استولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم، كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم، فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حرًّا فتكون أكثر تفشيًا، وتكون أسرع فرحًا وسرورًا وأكثر انبساطًا، ويجيء الطيش على أثر هذه." (ابن خلدون، 2004، ص118) والعلامة ابن خلدون إنّما كان يقصد بإقليم السودان عموم القارة الإفريقية اليوم.

فالإنسان جزء لا ينفصل عن البيئة التي يعيش فيها، فهي تؤثر عليه في كل جوانب حياته من صحته إلى سلوكه؛ وطريقة تفكيره، فالبيئة ليست مجرد مكان يحتوي الإنسان فقط، بل هي نظام متكامل من العوامل الطبيعية، والاجتماعية التي تحدد نمط حياته ومستقبله. وهي تلعب دورًا رئيسًا في تشكيل حياة الإنسان، ليس فقط من حيث صحته ومعيشته، بل أيضاً من حيث ثقافته وأسلوب تفكيره. فالبيئة التي ينشأ فيها الفرد تحدد عاداته، ولغته، وممارساته الاجتماعية، وحتى رؤيته للعالم. وعندما تتغير البيئات تتغير الثقافات أيضاً، مما يوضح العلاقة الوثيقة بين الإنسان ومحيطه الطبيعي والاجتماعي.

أثر البيئة الطبيعية على ثقافة الإنسان: تؤثر الجغرافيا والمناخ على طريقة عيش الإنسان وتفكيره، فمثلًا سكان المناطق الصحراوية يطورون مهاراتهم بناءً على ثقافة تعتمد على موروثهم من البيئة الصحراوية، حيث تسود ثقافة الترحال مما يؤثر على نظمهم الاجتماعية والاقتصادية، وتتجسد تلك الثقافة في نتاجهم الفكري والأدبي الذي ينتجه أبناء تلك البيئة، ومثال ذلك نجده في الأعمال الروائية للروائي الليبي الأستاذ إبراهيم الكوني، الذي خلق كونًا أدبيًا، وعالما روائيًا من ثقافته ثقافة الصحراء التي ينتمي إليها وكونت فكره وعكسها في أعماله الأدبية التي تُرجمتْ إلى لغات عالمية شتى. كذلك في المناطق الباردة يعتاد الناس الذين ينتمون إلى تلك البيئات على التخطيط لفصول الشتاء الطويلة، مما ينعكس على عاداتهم في الادخار والتخزين.

وكذلك في المناطق الساحلية تتشكل ثقافات تعتمد على الصيد والتجارة البحرية مما يجعل من سكانها أكثر انفتاحًا على الثقافات الأخرى، ونلاحظ هذه البيئة على سبيل المثال في دول حوض البحر الأبيض المتوسط التي ليبيا جزء مهم منها.

البيئة الاجتماعية وأثرها على الإنسان: لا يقتصر دور البيئة على العناصر الطبيعية، بل يشمل أيضًا العناصر الاجتماعية، فالبيئة الاجتماعية التي ينشأ فيها الإنسان تؤثر على لغته، وعاداته، وتقاليده، بل ورؤيته للحياة بشكل عام؛ ففي المجتمعات الريفية تسود قيم الجماعة والتعاون حيث يعتمد الأفراد على بعضهم البعض في حياتهم اليومية، بينما في المدن تفرض الحياة المدنية الحديثة نمطاً أسرع وأكثر فردية مما يؤثر على العلاقات الاجتماعية وطريقة التواصل بين الأفراد مما دفع إلى محاولة تعويض هذا النقص باستخدام التقنيات الحديثة لتعويض هذا القصور في العلاقات الاجتماعية عبر وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة نتيجة لهذا النمط الحياتي السائد في المدن المكتظة حول العالم بملايين السكان.

وفي البيئات المتعددة الثقافات ينشأ الإنسان على التفاعل مع الثقافات المختلفة –عكس المجتمعات ذات الثقافة الواحدة– مما يجعله أكثر تقبلاً للتنوع والانفتاح الفكري والثقافي، وإجمالاً لا يمكن فصل الإنسان عن بيئته فهي التي تشكّل ثقافته، وهويته، ولغته، ومع تطور البيئة تتطور الثقافات أيضاً مما يجعل العلاقة بين الإنسان ومحيطه علاقة متغيرة غير ثابتة، فالبيئة ليست مجرد مورد طبيعي يعيش منه الإنسان، بل هي أيضاً أساس الحياة، والثقافة الإنسانية.

بيئة شبه الجزيرة العربية زمن امرئ القيس: تُعدّ بيئة شبه الجزيرة العربية من العوامل التي أثّرت في شعر الجاهليين وعلى رأسهم الشاعر امرؤ القيس، إذ انعكست الطبيعة الصحراوية القاسية، والمناخ المتغير، والعادات الاجتماعية، والتقاليد القبلية في قصائده، مما جعلها مرآة صادقة لحياة العرب في تلك الحقبة التاريخية الغابرة. إذ "انحدرت قبيلة كندة التي منها الشاعر امرؤ القيس بن حجر إلى وادي الرمة في مكان

أطلق عليه فيما بعد "غمر كندة" وأسسوا مُلكًا جعلوا عاصمة له بطن عاقل" (علي، 1986، ص37).

وهذا الوادي يقع في نجد وهو أحد أطول الأودية في شبه الجزيرة العربية، يبدأ من منطقة المدينة المنورة ويمتد شرقاً عبر نجد حتى يصل إلى صحراء الدهناء حيث يعد من الأودية الموسمية التي تجري خلال فترة الأمطار الموسمية.

حيث قسّم الجغرافيون العرب شبه الجزيرة العربية إلى خمسة أقسام وهي: نجد، وتهامة، والعروض، والحجاز، وأخيرًا اليمن، ويتبع إقليم هضبة نجد التي عاش فيها الشاعر امرؤ القيس "بين اليمامة والشام جنوباً وشمالاً، وتنقسم هذه الأقاليم إلى أربعة أقسام: عالية نجد، وسافلة نجد، والقصيم، والوشوم"(علي، 1986، ص19).

وكانت نجد موطن امرئ القيس هضبة واسعة في وسط الجزيرة العربية، ذات طبيعة جغرافية قاسية جعلت الحياة فيها تتطلب قدرة عالية على التكييف والصمود، وهي بيئة تتميز بسلاسلها الجبيلة وتتخللها الأودية مثل وادي الرمة، الذي كان مصدرا مهما لسكان نجد للمياه الموسمية المرتبطة بموسم هطول الأمطار.

ومناخ نجد صحراوي قاسٍ يتميز بارتفاع درجات الحرارة الشديدة في فصل الصيف، وانخفاضها في فصل الشتاء، والأمطار فيها قليلة شحيحة، مما جعل مصادر المياه نادرة وغير دائمة، وهي تتمثّل في العيون والآبار والواحات المتناثرة في أرجاء صحراء نجد.

كذلك الرياح الشديدة التي تسبب في تكوين الكثبان الرملية، والغبار، والأتربة، وإجمالا فإنّ المناخ الذي يسود البيئة الطبيعية التي نشأ فيها الشاعر امرؤ القيس كانت ذات مناخ قاس للغاية، والإنسان بطبعه ابن بيئته وتتكون طبائعه ممّا يستمده من بيئته المحيطة به. "ويُعدّ مناخ شبه الجزيرة العربية بصفة عامة حارًا شديد الحرارة، وتهب الرياح في الصيف كأنّها الصهد ولذا سُميتْ بالسَّموم، أمّا رياح الشرق فتأتي لطيفة رقيقة واسموها الصَّبا، وكثُر ذكرها في شعر الجاهلية والإسلام لرقتها ولطف مسارها" (علي، 1986، ص21) وفي هذه البيئة الصحراوية شحيحة الموارد المائية لم يعرف الناس مهنة الفلاحة التي لا تكون إلّا بحال القرار، وإنّما كان العرب بدو رحل يعتمدون على مياه العيون، والواحات التي اعتمدوا عليها في الشرب والزراعة المحدودة، وانتشرت النباتات الصحراوية في هذه البيئة الطبيعية مثل الطلح، والسّدر، والنخيل التي اعتمد عليها العرب في الغذاء والرعي.

وانعكست هذه البيئة الصحراوية على أهلها؛ فالإنسان ابن بيئته ووليدها.

البيئة الاجتماعية: تميزت البيئة الاجتماعية في شبه الجزيرة العربية بطبيعتها القبلية، فالإنسان كائن اجتماعي لا يحيا إلّا في مجتمع بشري يبدأ من الأسرة وينتهي بالمجتمع، فالمجتمع بالنسبة للفرد السياج الذي يحميه ويوفر له الأمان والاطمئنان. وزادت جغرافية شبه الجزيرة العربية تأكيد هذا الانتماء الاجتماعي القبلي، حيث صار الفرد جزءًا لا يتجزأ من مجتمعه القبلي الصغير، ومن هنا كان لهذا الكيان الاجتماعي أهمية قصوى لا تقل في أهميته عن الماء والهواء؛ لذلك كان النفي عن هذا المجتمع يُعدّ من أشدّ العقوبات التي تواجه الفرد عندما يرتكب أثمًا أو ذنبًا لا يغتفر.

والقبيلة كانت في المجتمع الصحراوي تمثّل البيئة الاجتماعية التي ينشأ فيها الفرد، ومنها يتشكل فكره، ورؤيته للعالم الذي يحيط به. فهي: "نظام مألوف لم يعرف الرئاسة المطلقة، إنّما كان في كل قبيلة نفر من السادة، ومفردهم سيد، يعترف لهم أفراد القبيلة بسلطان أدبي، يجلونهم ويوقرون آراءهم، ولكنها ليست محدودة فهو يمثل القبيلة ويحمل الدّيات عمن يعجز عن دفع الدية من أفرادها، ويطعم الضيفان وما إلى ذلك فإذا دخلت القبيلة في حرب أو خصومة أصبحت رئاسته مطلقة حيث يقود القبيلة في الحرب، ويقوم بتمثيلها أمام الخصوم." (علي، 1986، ص46)

البيئة العقلية في العصر الجاهلي وأثرها في أشعار الجاهليين: كان للعقلية الجاهلية أثر عميق على الفرد والمجتمع؛ حيث شكّلت معارفه وقيمه العقلية فتركت أثرها الكبير على أسلوب حياته، ورغم أنّ هذه البيئة لم تعتمد على العلوم بمفهومها الحديث إلّا أنّها أنتجت أنماطاً فكرية متقدمة في مجالات الحياة الفكرية والأدبية كالحكمة، والخطابة، والشعر، ومنظومة العادات والتقاليد. وظهرت هذه الأنماط الفكرية في أشعار الجاهليين في الموضوعات التي تناولوها في أشعارهم وقصائدهم وخطبهم المختلفة. ونلتمس أثر هذه البيئة العقلية في أشعارهم، وخطبهم، وأمثالهم، وحكمهم، وذلك من جملة من النقاط نوجزها في الآتي:

– **التعبير عن القيم الاجتماعية:** حيث لعب الشعر الجاهلي دورًا مهمًا في توثيق القيم العقلية التي آمن بها العرب والتي تمثّلت في قيم الأخلاق مثل: الكرم، والشجاعة، والوفاء حيث كان الشعر بمثابة مرآة تعكس المعتقدات الفكرية السائدة في المجتمع الجاهلي وهي تمثّل

الموروث الفكري للبيئة الاجتماعية السائدة في ذلك الوقت والتي توارثها الآباء عن الأجداد.

– **القدرة على التصوير والابتكار**: كان الشّعراء الجاهليون يتمتعون بقدرة على تصوير المشاهد الحياتية رغم قساوتها وصعوبتها، فانعكس ذلك في وصف الطبيعة القاسية وحياة القبائل ومعاركهم وحبهم وأحزانهم في أشعارهم، فنجد في شعر امرئ القيس براعة في تصوير الصيد والحيوانات البرية، بينما تفوق زهير بن أبي سُلمى في تصوير معاني الحكمة والسلم المجتمعي.

– **الجدل والمناظرة في الشعر**: كان لدى الشعراء الجاهليين قدرة كبيرة على الجدل والرد على الخصوم في أشعارهم وهذا يعكس قوة تفكيرهم وقدرتهم على بناء الحجج والإقناع، فنجد في أشعار النابغة الذبياني أسلوبًا يعتمد في بنائه الفكري على الموازنة بين الأفكار، وإبراز الحجج العقلية وخاصة في اعتذاراته ومدحه للملوك.

التفكير الفلسفي: كان بعض الشعراء الجاهليين يميلون إلى التأمل في الحياة والموت، والمصير الإنساني عامة، وتمثّل هذا الاتجاه الفلسفي عند لبيد بن ربيعة الذي تميزت أشعاره بالحكمة والتفكير العميق في زوال الدنيا، وكذلك لدى زهير بن أبي سُلمى حيث كانت له نظرات في الحكمة والمصير في أشعاره، وتعدى هذا المفهوم الشعراء إلى الخطباء خاصة قس بن ساعدة الذي ذكر في خطبه جملة من الآراء عن الحياة، والبعث، والموت، ودعا الناس إلى التفكير في عمق عن المعنى الحقيقي من الوجود، فكان بحق أرسطو العرب.

وهكذا نرى أنّ للبيئة العقلية أثرها الكبير في أشعار العرب الجاهليين، حيث ظهرت فيها قدرتهم على التفكير المنطقي، والجدل، والتأمل الفلسفي، إلى جانب دقة التصوير والقدرة على التأثير والاقناع، فالشعر لم يكن مجرد وسيلة للمدح والهجاء فقط بل كان تعبيراً عن رؤية عقلية نابعة من البيئة الفكرية لدى الجاهليين شكلت نظرتهم لفهم الحياة.

امرؤ القيس: حياته وشعره: يُعدّ امرؤ القيس أشهر شعراء العرب على مدار التاريخ، وأحد أبرز شعراء العصر الجاهلي، كما يُعدّ من أصحاب المعلقات السبع، "هو امرؤ القيس بن حُجْر بن الحارث بن عمرو بن حُجْر آكل المرار الكندي (501م –540م) أبوه صاحب الملك المتوارث في كندة، وجدّه قرينُ الملوك الصَّيد من لخم وغسَّان" (إبراهيم، 1990، ص6) ولد في قبيلة كندة التي كانت تتمتع بنفوذ سياسي واسع في شبه الجزيرة العربية، وكانت عائلته حاكمة على بني أسد وغطفان.

نشأ امرؤ القيس في بيت عز وجاه، حيث كان والده حجر ملكًا على قبيلة كندة، عُرِف منذ صغره بحبه للشعر والترف، مما أثار غضب والده الذي كان يرى أنّ هذا السلوك لا يليق بوريثه. رغم محاولات والده لتقويمه، استمر امرؤ القيس في حياة اللهو حتى حدثت نقطة التحول الكبرى في حياته، وهي مقتل والده على يد بني أسد.

وبعد مقتل والده أخذ امرؤ القيس على عاتقه الثأر لدمه، وبدأ في جمع القبائل وتأليبها ضد بني أسد، وقاد عدة حملات للانتقام، ولكنه لم ينجح في استعادة ملك أبيه. وتنقل بين القبائل والملوك طلبًا للدعم إلى أنْ لجأ إلى قيصر الروم الذي وعده بالمساعدة، ولكنه مات مسمومًا أثناء رحلته، وفق بعض الروايات.

مكانته الشعرية: يُعدّ امرؤ القيس من أوائل من أدخلوا التجديد في الشعر الجاهلي سواء من حيث الأسلوب أو الموضوعات، وكان شعره ثريًا بالصور الفنية والوصف الدقيق للطبيعة، واشتهر بشكل خاص بوصف النساء والخيل، والصيد. كما كان أول من استخدم الوقوف على الأطلال كموضوع شعري أساسي، ثم أصبح تقليدًا متبعًا في الشعر الجاهلي.

وتُعدّ معلقة امرئ القيس واحدة من أشهر القصائد في الأدب العربي، وتتميز بطولها وتنوع موضوعاتها. تبدأ المعلقة بالبيت المشهور: (ابن حجر، 1990: ص8)

قِفا نَبكِ من ذِكرى حَبيبٍ ومَنزِلِ بِسِقطِ اللِّوى بَينَ الدَّخولِ فَحَومَلِ

وفي هذه القصيدة، يتنقل الشاعر بين الغزل، ووصف الطبيعة، والتعبير عن مشاعر الحزن، مما يعكس قدرته الفريدة على التنوع في الأسلوب والمضمون.

الخصائص الفنية في شعر في شعر امرئ القيس:

1) الغزل الصريح: اتسم شعر امرئ القيس بالجرأة في التعبير عن مشاعره تجاه النساء، وهو ما كان غير مألوف في عصره.

2) وصف الطبيعة: برع امرئ القيس في وصف المناظر الطبيعية، من الجبال والسهول إلى الأنهار والوديان، مما جعل شعره غنيًا بالصور الحسية.

3) البكاء على الأطلال: كان امرؤ القيس أول من أدخل هذا الموضوع في الشعر الجاهلي، حيث يُعبّر عن الحنين والذكريات.

4) التشبيهات والاستعارات: استخدم امرؤ القيس التشبيهات بشكل مميز، فكان يصف الخيل والنساء والطبيعة بأسلوب تصويري رائع.

وفاته: توفي امرؤ القيس في ظروف غامضة، حيث يُعتقد أنّه مات مسمومًا بعد أنْ دس له قيصر الروم السُّم. حيث يُقال إنّ موته كان نتيجة دسائس سياسية، بعدما شعر القيصر أنّ وجوده أصبح عبئًا عليه. "فامرؤ القيس ذهب إلى قيصر الروم يستعين به على أعدائه ولكنه لم يجد عنده ما يريد ومات في عودته حوالي سنة 565م" (عباس، 2009، ص140)

تأثير امرئ القيس على الأدب العربي: كان امرؤ القيس مصدر إلهام للأجيال اللاحقة من الشعراء، حيث كان تأثيره واضح في الشعر الأموي والعباسي، فكان شعره يُعدّ الأنموذج الأعلى للشاعر المبدع في العصر الجاهلي. وحتى زماننا هذا يُعدّ شعر امرئ القيس مادة دراسية مهمة لطلبة اللغة العربية ومتذوقي الأدب العربي الجميل. فامرؤ القيس ليس مجرد شاعر عادي، بل هو أحد أعمدة الشعر العربي القديم، الذي شكّل معالمه وأعطاه هويته المميزة، فأثره الأدبي تجاوز عصره، وبقي خالداً في ذاكرة الأدب العربي بفضل إبداعه الشعري الخلاق وتنوع موضوعاته الشعرية.

المبحث الثاني:

أثر البيئة في معلقة امرئ القيس: يُعَدُّ امرؤ القيس من أبرز شعراء العصر الجاهلي، وقد عُرِف بقدرته الفائقة على تصوير الطبيعة ومشاهد الحياة البدوية بأسلوب شعري مميز. ولأن الأدب مرآة تعكس واقع الشاعر وظروفه، فقد تأثر شعر امرئ القيس تأثرًا كبيرًا ببيئته الطبيعية والاجتماعية والعقلية، مما جعله أنموذجًا بارزًا لدراسة العلاقة بين الشاعر والواقع المحيط به.

ويهدف هذا المبحث إلى تسليط الضوء على كيفية انعكاس البيئة في طويلة امرئ القيس سواء من وصفه للطبيعة الصحراوية بمظاهرها المختلفة من جبال وسهول ووديان، أو من تصويره لأساليب الحياة البدوية القائمة على الترحال والصيد والقبائل. كما يتناول البحث أثر البيئة الاجتماعية على شعره، مثل العادات والتقاليد القبلية، ودورها في تشكيل شخصيته الشعرية. إضافةً إلى ذلك، يستعرض البحث تأثير البيئة العقلية والنفسية في قصائده، خاصةً في تصويره لمشاعر الحنين والحب والفقدان.

ومن تحليل بعض الأبيات المختارة من المعلقة يتبين كيف استطاع امرؤ القيس توظيف بيئته في بناء صوره الشعرية وتشبيهاتِه واستعاراتِه، مما جعل شعره وثيقة أدبية تعكس الحياة الجاهلية في أدق تفاصيلها. لذا فإنّ هذا المبحث يسعى إلى إبراز مدى تفاعل الشاعر مع بيئته، وكيف أثّر ذلك على بنية شعره ومضامينه الفنية.

الوقوف على الأطلال ومظاهر البيئة في ذلك الوقوف: يقول امرؤ القيس في معلقته الطويلة: (بن حجر، 1990: ص8)

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُول فَحَوْمِلِ
فَتُوْضِحَ فَالمِقْراةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُـــها لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وشَمْـأَلِ
تَرَى بَعَرَ الأَرْآمِ فِي عَرَصـــاتِهَا وَقِيْعَانِهَا كَأَنَّهُ حَبُّ فُلْفـــــلِ
كَأَنِّي غَدَاةَ البَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّـــلُوا لَدَى سَمُرَاتِ الحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَـلِ
وُقُوْفاً بِهَا صَحْبِي عَلَّي مَطِيَّهُـمُ يقولون: لا تَهْلِكْ أَسَىً وَتَجَمَّـــلِ
وإِنَّ شِفائِي عَبْرَةٌ مُهْـــــرَاقَةٌ فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ؟

في مقدمته الطللية يبدأ امرؤ القيس بالوقوف على عادة شعراء العرب، حيث شكّل بحروفه البديعة، لوحة فنية جميلة، تحمل في إطارها قضايا إنسانية نبيلة، ونسجها الشاعر انطلاقًا من ثقافته التي اكتسبها من بيئته المادية والمعنوية.

فذكر الشاعر في مقدمته الأماكن الصحراوية، حيث بدأ قصيدته بذكر مواقع جغرافية محددة مثل سقط اللوى، الدخول، حومل، توضح، المقراة، وهي أماكن صحراوية معروفة في الجزيرة العربية. وهذا يدل على ارتباط الشاعر بالبيئة الصحراوية، حيث الترحال والمراعي، كذلك ذكر في قصيدته عوامل المناخ المتمثّلة في الرياح الشديدة ذات الحرارة الملتهبة في قوله: "لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وشَمْأَلِ" حيث نجد وصفًا لآثار الرياح الشمالية، والجنوبية على آثار الديار، مما يشير إلى تأثر البيئة الصحراوية بالعوامل الجوية القاسية، التي تمحو الآثار وتغير معالم الأرض. كذلك نجد أثر البيئة الطبيعة للحيوانات والنباتات الصحراوية التي تكابد في بيئة قاسية، مثلما يعاني أهل تلك البيئة فكأنّهم جميعًا ينتمون لعائلة واحدة تتحدى الفناء من أجل البقاء، فنجد الشعر استخدم من بيئته ومن بقايا الحيوانات ما يلون به نصه الأدبي، فيحول الشيء الذي نمتعض منه إلى صورة معبرة مأخوذة من البيئة المحيطة بالشاعر باستخدامه "بَعَرَ الأَرْآمِ" (روث الظباء) في تصوير أثر القوافل التي مرت بالديار، حيث تشكّل هذه الآثار عنصرًا مألوفًا في البيئة الصحراوية. فتشبيه الشاعر للبعر بـ"حب الفلفل" يعكس الدقة في الملاحظة، وهو مستوحى من الطبيعة الصحراوية التي تحتوي على هذه النباتات البرية. كذلك انعكست البيئة الصحراوية المحيطة بالشاعر والتي يكثر به الحل والترحال، نتيجة

للظروف البيئية المعيشة، وما خلقه ذلك الترحال من بيئة نفسية تؤثر في أفراد العشيرة التي تفارق مواطن عاشت بها زمنا غير قليل، خلقت لهم أوقات جميلة وطيبة جعل صفاء الساعات يتغلب على كدرة العيش، وقساوة الصحراء، ومناخها الصعب، الذي لا يحتمله إلّا من كان له من القدرة والجلد والصبر ما لأحد غيره. لقد خلقت البيئة الصحراوية الصعبة حالة من الترحال والوداع تمثّل في قوله: "كَأَنِّي غَدَاةَ البَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا" حيث يصف امرؤ القيس لحظة الرحيل التي تحدث بسبب طبيعة الحياة البدوية التي تفرض التنقل بحثًا عن الماء والمراعي. كذلك جسّدت الأبيات السابقة أثر البيئة الاجتماعية، التي شملت التقاليد القبلية في قول الشعر:

"وُقُوْفاً بِهَا صَحْبِي عَلَّي مَطِيَّهُمُ يَقُوْلُوْنَ: لاَ تَهْلِكْ أَسَىً وَتَجَمَّلِ"

فنجد أنّ أصدقاءه ينصحونه بعدم الإفراط في الحزن، وهذا يعكس القيم الاجتماعية السائدة في البيئة الجاهلية، حيث كان يُتوقع من الرجل أنْ يكون قويًا ومتجملًا في مواجهة الأحزان؛ لأنّ في هذه البيئة لا مجال فيها للضعفاء حتى أمام أنفسهم، فالضعف مكمن الموت والنهاية في بيئة لا تعترف سوى بالأقوياء، فمن يضعف يسقط وينتهي، ولو كان هذا الضعف يتمثّل في شعور بالحنين للحبيب، فهو ضعف لا يجب أنْ يظهر حتى لا ينتقص من قيمة المرء في تلك البيئة القاسية المهلكة.

وظهر في هذه الأبيات أيضًا قيمة المرأة في بيئته الاجتماعية الصحراوية المتقشفة القاسية، فذكر الشاعر مكانتها في نفسه، حيث بدأ قصيدته بذكر الحبيبة والمنزل، وهذا يعكس اهتمام شعراء الجاهلية بالمرأة، خاصة في سياق الحنين إليها، وهو ما يعكس دور الحب في الثقافة البدوية، حتى وإنْ بدأ أنّها بيئة لا تعترف بالحب بل بالقوة.

كذلك نلاحظ من الأبيات السابقة أثر البيئة العقلية والنفسية التي تجلّت في معاني الشعور بالحنين والحزن في البيت الأول بقوله: "قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ" حيث يعكس تأثير البيئة القاسية على نفسية الشاعر، حيث يرتبط الحب بالافتقاد والوداع بسبب حياة الترحال المستمر من أجل البحث عن مصادر تمنح الحياة للأفراد الذين ينتمون لهذه البيئة، كذلك نجد في البيت الأخير "وإِنَّ شِفائِي عَبْرَةٌ مُهْرَاقَةٌ فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ؟" يعكس الشعور باليأس، حيث يرى امرؤ القيس أنّ الدموع وحدها قادرة على تخفيف آلامه، لكنه في الوقت نفسه يتساءل إنْ كان البكاء مجديًا أمام دار اندثرت بفعل الزمن والتقادم؟ فالبيئة الطبيعة التي تغير معالم الديار بفعل الرياح والزمان تعكس فكرة فلسفية حول عدم دوام الأشياء، وهو ما يرسّخ مفهوم الفناء في العقلية الجاهلية. وهكذا يتجلى تأثير البيئة في هذه الأبيات بوضوح، حيث نجد انعكاسًا للعوامل الطبيعية مثل الصحراء، والمناخ، والعوامل الاجتماعية كالتقاليد القبلية، وأخيرًا العوامل النفسية التي تتجلى في مشاعر الحزن والحنين. كل هذه العناصر مجتمعة تشكّل هوية شعر امرئ القيس، حيث يصور تجربة إنسانية عميقة في ظل بيئة قاسية لكنها غنية بالصور الشعرية.

أثر المظاهر البيئية من سماء ونجوم وليل عند امرئ القيس: كان لمظاهر الطبيعة المختلفة: كالليل، والنجوم، والسحاب، والمطر، والرياح، والشمس، والقمر ومختلف عوامل الطقس والمناخ أثرها البالغ في معلقة امرئ القيس من حيث تشكيل الصور الشعرية، وتعميق المفاهيم الفكري المستوحاة من البيئة الطبيعية، وتجسيمها في شكل نتاج أدبي إبداعي، يعبر عن الحالة الشعورية للأديب، ويعكس أفكاره ورؤاه للعالم من قصائده الكثيرة المختلفة. يقول الشاعر: (ابن حجر، 1990، ص18)

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُوْلَهُ عَلَيَّ بِأَنْـــوَاعِ الهُمُـوْمِ لِيَبْـتَلِي
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَـطَّى بِصُـــلْبِهِ وأَرْدَفَ أَعْجَـازاً وَنَـاءَ بِكَلْـكَلِ
ألاَ أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيْلُ ألاَ انْجَلِي بصُبْحٍ، وَمَا الإِصْبَاحُ مِنكَ بِأَمْثَلِ
فَيَا لَكَ مَـنْ لَيـْلٍ كَأَنَّ نُجُـومَهُ بكل مُغار الفـتل شُدّت بيـذبل
كَأَنَّ الثُرَيّا عُلِّقَت في مَصامِها بِأَمْرَاسِ كَتَّـانٍ إِلَى صُمِّ جَنْـدَلِ

عندما نقرأ الأبيات السابقة نجد أنّها ليست مجرد كلمات مرصوفة، أو تشبيهات عابرة، بل هي انعكاس مباشر للبيئة التي نشأ فيها امرؤ القيس بكل تفاصيلها الجغرافية، والاجتماعية. ففي هذه الأبيات لا يصور الشاعر الليل فقط، بل يعيش فيه ويجسّده ككيان حيّ، متأثرًا بكل عناصر الطبيعة المحيطة به. فقد عكس الشاعر البيئة الصحراوية القاسية على هذا الوصف ذكر امرؤ القيس الليل والبحر، حيث نجد تصادم بيئتين مختلفتين في هذا التشبيه، فالشاعر يشبه الليل بموج البحر، فيقول: "وَلَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُوْلَهُ" وهنا نجد أنّ امرأ القيس استخدم عنصرًا غير مألوف في الصحراء، وهو البحر، رغم أنّه ابن الصحراء القاحلة. ولكن في المقابل البحر عند العرب لم يكن مجهولًا تمامًا، فقد عرفوه من رحلاتهم التجارية، وخاصة عبر اليمن والشام.

والبحر عند امرئ القيس ليس مجرد ماء، بل هو حركة مضطربة ومخيفة، تشبه تقلّبات الأفكار والهموم التي اجتاحته في الليل. ورغم أنّ

الليل في الصحراء هادئ وثابت، إلّا أنّ الشاعر يراه متحرّكًا ومتلاطمًا كالموج، مما يعكس حالة القلق وعدم الاستقرار النفسي الذي يعيشه الشاعر، وهنا نجد أنّ الشاعر يدمج بين بيئتين مختلفتين، حيث يستخدم عنصر البحر لتفسير تجربة عاشها في بيئته الصحراوية. كذلك يرى الشاعر الليل ككائن حيّ في تجسيد مستمد من عالم الصحراء التي يعيش فيها الشاعر، ثم ينتقل إلى تصوير الليل على أنّه مخلوق ضخم يتمدد ويثقل كاهله، فيقول: "فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ ... وأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ بِكَلْكَلِ" وهنا يتحوّل الليل إلى جملٍ أو دابة ضخمة، تتمطّى وتتثاقل، وهذه صورة مأخوذة من واقع الحياة في الصحراء. ففي قول الشاعر:

"تمطّى بصلبه": التمطّي هو التمدد، وهو مشهد مألوف في الصحراء، حيث ترى الجِمال تتمدد بعد مسير طويل، وأيضاً قوله:

"أردف أعجازًا وناء بكلكل": أي أن الليل صار ثقيلاً كالجمل عندما يرخي مؤخرته الضخمة ويثقل بصدره على الأرض.

هذه الصورة مأخوذة من حياة البدو في الصحراء، حيث كانوا يرون الجمل يركع تدريجيًا حتى يلامس الأرض بجسمه الثقيل، وهذا يعكس طول الليل وثقله على نفس الشاعر، في لمسة ساحرة للبيئة في تشكيل الصورة الشعرية المجسمة، التي تعبر عن دقائق الحالة النفسية القلقة للشاعر. إذًا هنا نشهد تحوّل الليل من كائن مجرد إلى كائن حيّ يعيش في الصحراء، مما يدل على مدى اندماج الشاعر ببيئته لدرجة أنّه لا يستطيع أنْ يتخيّل الليل إلّا في صورة شيء يعرفه تمامًا، ثم يعبر الشاعر عن طول الليل في الصحراء، وهذا الأحساس تلفه الوحدة والشعور بالبرد، حيث يقول الشاعر: "ألاَ أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيْلُ ألاَ انْجَلِي.... بِصُبْحٍ، وَمَا الإِصْبَاحُ مِنكَ بِأَمْثَلِ" وهنا نجد إحساسًا قويًا بطول الليل، وهو إحساس مألوف لدى أهل الصحراء. فالليل في الصحراء يمتد طويلًا بلا أنيس، حيث لا توجد أضواء ولا ضجيج، مما يجعل الوقت يبدو ثقيلاً ومملًا، ويكون باردًا وقاسيًا، ما يزيد من إحساس الوحدة والقلق، فلا توجد فيه وسائل ترفيه، لذلك يكون وقتًا مثاليًا للتأمل والأفكار الثقيلة. ورغم أن الشاعر يتمنى انجلاء الليل، إلا أنه يدرك أن الصباح لن يكون أفضل، مما يعكس حالة من الحزن الدائم الذي لا يتغير مع تبدّل الأوقات.

وعكس الشاعر مظاهر البيئة الصحراوية في الليل حيث الظلمة الحالكة، والنجوم الساطعة في قلب السماء، وهي انعكاس للمعرفة الفلكية عند العرب حيث يقول: "فَيَا لَكَ مَنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ ... بكل مُغار الفتل شُدّت بيذبل" وفي هذ الصورة، نجد تأثيرًا مباشرًا للبيئة البدوية في وصف النجوم، حيث كان العرب متمرسين في علم الفلك؛ لأنّهم يعتمدون على النجوم في تحديد الاتجاهات والمسارات أثناء الترحال. وهنا يشبّه الشاعر النجوم بأنّها مربوطة في السماء بحبال قوية (مغار الفتل)، تمامًا كما تربط الخيام بحبال مشدودة على الأرض، وهذا التشبيه يعكس طريقة تفكير البدو، حيث يقيسون الأشياء السماوية بأدوات حياتهم اليومية، ثم يضيف الشاعر: "كَأَنَّ الثُرَيّا عُلِّقَت في مَصامِها .... بِأَمْرَاسِ كَتَّانٍ إِلَى صُمِّ جَنْدَلِ".

وهنا نرى صورة أخرى مأخوذة من حياة البيئة الصحراوية القاسية حيث نجد الشاعر يوظف اللغة المستمدة من خبراته البيئية، فنجده يذكر في شعره في قوله: "الثرَيّا" وهي مجموعة نجوم كانت مهمة جدًا في معرفة الفصول والتنبؤ بالطقس عند العرب في الجاهلية، حيث يشبهها امرؤ القيس بحبال مصنوعة من الكتّان مربوطة بأحجار صلبة، وكأنّها مشدودة إلى السماء بحبال غير مرئية وهذا التشبيه لا يمكن أنْ يأتي إلّا من شخص يعرف البيئة الصحراوية جيدًا، ويعيش فيها يوميًا، ويرى هذه المشاهد مألوفة في حياته. ونجد أن الشاعر قد تأثر بالمحيط الصحراوي فجعل الليل كائنًا صحراويًا (الجمل) ليصف ثقله، كما أنّه استخدم البحر رغم أنّه من بيئة مختلفة ليعبّر عن اضطراب نفسي ناتج عن بيئة الصحراء القاسية.

وعبّر امرؤ القيس عن طول الليل وبرودته من طبيعة الحياة في البادية، حيث يصبح الليل وقت التفكير العميق، كما أنّ استخدامه النجوم في التشبيه يعكس معرفة العرب بالفلك واهتمامهم بالسماء كجزء من حياتهم اليومية. فكانت البيئة حاضرة في هذه الأبيات وجعلت منها لوحة فنية إبداعية؛ لأنّها ليست مجرد وصف، بل تجربة حية تشعر بها وكأنك تعيشها، فامرؤ القيس لم يكن يصف بيئته فقط، بل كان ينسج من مكونات هذه البيئة صورًا فنية عظيمة تجعلنا نرى الصحراء بعينيه، ونشعر بما يشعر به. وهذا ما يجعل شعره خالدًا عبر العصور.

البيئة الحيوانية وأثرها في معلقة امرئ القيس: امرؤ القيس ليس مجرد شاعر يصف البيئة، بل هو ابن الصحراء التي تتجلى ملامحها في روحه قبل كلماته، في هذه الأبيات، نجد أنّ البيئة ليست مجرد إطار مكاني، بل هي كيان حي يشكّل تصورات الشاعر ومفرداته ورؤيته للعالم، فالصحراء ليست مجرد مكان يعيش فيه، بل هي ملهمته الكبرى،

وقسوَتها صنعت رجولته، واتساعها صنع خياله، وخطرها صنع شجاعته.

فهو حينما يعبر عن علاقته بفرسه الذي تجتمع فيه ملامح القوة، وفي الشاعر الفروسية والشجاعة، وقد عبر امرؤ القيس عن ذلك في قوله: (ابن حجر، 1990، ص20)

وَقَدْ أَغْتَدِي والطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوَابِدِ هَيْكَلِ
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ
كَمَيْتٍ يَزِلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالِ مَتْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالمُتَنَزَّلِ
مِسِحٍّ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَى الوَنَى أَثَرْنَ الغُبَارَ بِالكَدِيْدِ المُرَكَّلِ
لَهُ أَيْطَلا ظَبْيٍ، وَسَاقَا نَعَامَةٍ وإِرْخَاءُ سَرْحَانٍ، وَتَقْرِيْبُ تَتْفُلِ
كَأَنَّ عَلَى الكتفين مِنْهُ إِذَا انْتَحَى مَدَاكُ عَرُوسٍ أَوْ صَلايَةَ حَنْظَلِ
وبَاتَ عَلَيْهِ سَرْجُهُ ولِجَامُهُ وَبَاتَ بِعَيْنِي قَائِماً غَيْرَ مُرْسَلِ
فَعَنَّ لَنَا سِرْبٌ كَأَنَّ نِعَاجَهُ عَذَارَى دَوَارٍ فِي مُلاءٍ مُذَيَّلِ
فَأَدْبَرْنَ كَالجِزْعِ المُفَصَّلِ بَيْنَهُ بِجِيْدٍ مُعَمٍّ فِي العَشِيْرَةِ مُخْوِلِ
فَأَلْحَقَنَا بِالهَادِيَاتِ ودُوْنَهُ جَوَاحِرُهَا فِي صَرَّةٍ لَمْ تُزَيَّلِ
فَعَادَى عِدَاءً بَيْنَ ثَوْرٍ ونَعْجَةٍ دِرَاكاً، وَلَمْ يَنْضَحْ بِمَاءٍ فَيُغْسَلِ
وَظَلَّ طُهَاةُ اللَّحْمِ مِن بَيْنِ مُنْضِجٍ صَفِيفَ شِوَاءٍ أَوْ قَدِيْرٍ مُعَجَّلِ
ورُحْنَا وَرَاحَ الطَّرْفُ ينفض رأسه مَتَى تَرَقَّ العَيْنُ فِيْهِ تَسَفَّلِ
كَأَنَّ دِمَاءَ الهَادِيَاتِ بِنَحْرِهِ عُصَارَةُ حِنَّاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَّلِ
وأنت إِذَا اسْتَدْبَرْتَهُ سَدَّ فَرْجَهُ بِضَافٍ فُوَيْقَ الأَرْضِ لَيْسَ بِأَعْزَلِ

إنّ الفرس الذي يصفه امرؤ القيس ليس حيوانًا مدجّنًا، بل كائن تكوّن من روح الصحراء نفسها. إنّه قوي، بري، صلب، يستطيع مطاردة الوحوش الهاربة، وهذه الصورة تعكس بيئة تحتاج إلى القوة والتحمل، حيث لا مكان للضعفاء، فالعيش في الصحراء يعني القدرة على مطاردة الطعام لا انتظاره، في البيئة الصحراوية، السيول نادرة، لكنها حين تهطل تجرف كل شيء أمامها، حيث شبه امرؤ القيس فرسه بجلمود صخر مندفع مع السيل يوحي بالقوة والطاقة الجبارة، حيث تتحرك الأشياء بعنفوان الطبيعة نفسها. فالصحراء هنا تُنتج كائنات لا تعرف الهدوء، بل تسير بقوة تفوق الطبيعة نفسها. وفي هذه البيئة الصحراوية القاسية الصيد ليس ترفًا، بل هو جزء من بقاء الإنسان، والفرس ليس للزينة، بل للصيد والمطاردة. وهذه الصورة تعكس جمال الصحراء القاسي: فريسة تهرب، وصياد يلاحقها. لا أمان، لا استقرار، بل حركة مستمرة. واستمد الشاعر الألفاظ والصور من بيئته الصحراوية، حيث يمكن أنّ تصنف هذه الألفاظ على النحو الآتي:

أ) المفردات الصحراوية: "الطير في وكناتها" ⟵ صورة للصباح الصحراوي الهادئ.

"الغبار بالكديد المركل" ⟵ الرياح تثير الغبار، دلالة على قسوة البيئة.

"اللَّبْدُ، الصفواء، الذبل" ⟵ مفردات صحراوية خالصة، تصف قسوة الأرض وصعوبة الحركة.

"أيطلا ظبي، وساقا نعامة" ⟵ تشبيهات مأخوذة من حيوانات البيئة الصحراوية التي تعتمد على السرعة في الهروب والنجاة.

ب) الصور المستمدة من الطبيعة:

"كَأَنَّ دِمَاءَ الهَادِيَاتِ بِنَحْرِهِ عُصَارَةُ حِنَّاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَّلِ"

حتى لون الدم مأخوذ من البيئة: الحناء، نبات الصحراء الأحمر، الذي يشبه لون الدم المسفوك.

هذه الصور التي زين بها امرؤ القيس قصيدته تجعل الطبيعة نفسها تشارك في المشهد، فالصحراء ليست مجرد مكان، بل هي عنصر حيّ يسهم في تكوين المشهد.

ج) البنية النفسية للإنسان الصحراوي في الأبيات:

التنقل والبحث الدائم: "مكر مفر مقبل مدبر معًا" فإنسان الصحراء لا يعرف السكون، فهو دائم الحركة، دائم الترحال، لا يقف عند نقطة ثابتة. وحتى فرسه يعكس هذه الروح المتنقلة، فهو ليس كائنًا يركض للأمام فقط، بل يناور، يفر، يعود، يندفع. إنّ هذا الفرس لا يُترك لينام دون استعداد، فهو دائم الجاهزية، فهو ابن الصحراء يعرف أنّ كل لحظة هدوء تعقبها معركة أو مطاردة. ونلاحظ وصف الشاعر للصيد والطرد الذي يحدث بينه وبين فرسه في الصحراء، فيقول: "عَادَى عِدَاءً بَيْنَ ثَوْرٍ ونَعْجَةٍ" فالصحراء بيئة لا تُرحم، حيث الضعيف لا مكان له، والعراك هو قانون الحياة، والصيد ليس مجرد متعة، بل هو معركة حقيقية للبقاء، فالبعض يعتقد أنّ الصحراء مجرد رمال، لكنها في شعر امرئ القيس تمتلئ بالحركة والصراع، حيث تتجلى في صورة الرياح تحرّك الغبار، والفرس يركض كالصاعقة، والسيول تجرف الصخور، والوحوش تهرب، والصيادون يطاردونها. ومن كل تلك الصور يُلاحظ أنّ هذه ليست بيئة ميتة، بل هي عالم ينبض بالحركة، وفي الوقت نفسه هو عالم البيئة المنعكس في إبداع الشاعر ابن البيئة.

الخاتمة

بعد استعراض أثر البيئة الجغرافية، والاجتماعية في معلقة امرئ القيس، نجد أنّ الشاعر تأثر ببيئته البدوية تأثرًا عميقًا، فجاءت صوره الشعرية معبرة عن الصحراء بمظاهرها المختلفة، من كثبان الرمال، والوديان، والسيول إلى الوحوش والخيول، مما أكسب شعره طابعًا حسيًا قويًا يعكس مشاهد الحياة البدوية بكل تفاصيلها. كما لعبت البيئة الاجتماعية دورًا بارزًا في تشكيل نظرته للحياة، إذ تأثر بعادات قومه وتقاليدهم، مما انعكس في تصويره للمرأة، ومغامراته العاطفية، ورحلاته الطويلة بحثًا عن المجد والثأر.

إنّ تحليل أثر البيئة في شعر امرئ القيس لا يكشف فقط عن عمق الصلة بين الشاعر ومحيطه، بل يؤكد أنّ الأدب الجاهلي بشكل عام كان انعكاسًا صادقًا لحياة العرب في ذلك العصر. ولذلك فإنّ دراسة البيئة وتأثيرها في الشعر الجاهلي تظل من المجالات المهمة التي تساعد على فهم أعمق للتراث الشعري العربي، وتفتح المجال لمقارنات مع عصور شعرية لاحقة، لاستكشاف مدى استمرار تأثير البيئة في تشكيل ملامح الشعر العربي عبر الزمن.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن حجر، امرؤ القيس. 1990. ديوان امرئ القيس. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة. مصر. دار المعارف.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون. 2004. مقدمة ابن خلدون. تحقيق: حامد أحمد الطاهر. القاهرة. مصر. دار الفجر للتراث.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد. 1994. لسان العرب. المجلد الأول. بيروت. لبنان. دار الصادر.
- زهري، زينب محمد عبد الكريم. 2020. سوسولوجيا البيئة. بنغازي. ليبيا. منشورات جامعة بنغازي.
- علي، محمد عثمان. 1986. في أدب ما قبل الإسلام. الخمس. ليبيا. منشورات الجامعة المفتوحة.
- عباس، يوسف عباس. 2009. في ظلال أدبنا الجاهلي. البيضاء. ليبيا. منشورات جامعة عمر المختار.